ذخائر المغرب العربي

مسلم بن عبد القادر

أنيس الغريب والمسافر

تحقيق وتقديم
رابح بونار



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع
1394هـ - 1974م

ذخائر المغرب العربي

تاريخ بايات وهران المتأخر

أو

خاتمة

أنيس الغريب والمسافر

لمسلم بن عبدالقادر الوهراني (1)

(1) مُسَلِّمٌ وَرَدَ بضم الميم وفتح السين وكسر اللام المشدّدة اعتماداً على ما جاء في نظم الجواهر ، في سلك أهل البصائر لمحمود بن الطاهر بن حواء حيث يقول في شرح بيت مسلم نفسه: مسلم بكسر اللام اسم الناظم وسكنت في البيت ، وخففت اللام لأجل دفع الثقل في الوزن (راجع نظم الجواهر مخطوط المكتبة الوطنية رقم 1893 الورقة 45) .

تحقيق وتقديم
رابح بونار



الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

١٣٩٤ هجرية ١٩٧٤ ميلادي

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

المقدمة

إن مخطوط « أنيس الغريب والمسافر » الذي أردنا نشره وتحقيقه يتعلق بفترة هامة من تاريخ مدينة وهران ، والمقاطعة الغربية عامة ، وهو يسجل الاحداث التى عانتها وهران عقب استرجاعها من يد الاسبان على يد محمد باي الـكبير (1192 هـ – 1778 م 1213 هـ – 1796 م) سنة 1206 هـ / 1792 م وعلى عهد محمد عثمان باشا – داي الجزائر الـكبير .

وتمتد هذه الفترة من سنة 1778 م إلى سنة 1832 م ولما كان مسرح هذه الاحداث هو مدينة وهران الجليلة رأينا أن نخصها بنبذة تاريخية ، ثم نعزز ذلك بخلاصة عامة لتاريخ هذه المدينة منذ تأسيسها إلى أن وقع احتلالها من قبل الفرنسيين سنة 1832 م .

مدينة وهران

إن وهران[1] بفتح الواو وسكون الهـــاء ، وفي آخرها نون هي مدينة كبيرة من مدن القطر الجزائري ، وقاعدة لاقليم وهران منذ أواخر العصر الزياني ، وهي من أهمّ مرافىء الجزائر . وأصلها العريق قرية « ايفرى » المغربية[2] ، وتذهب دائرة المعارف الإسلامية إلى أن أصلها قبل الإسلام هو بورتيس ديفيني أو الميناء الالهي ، واختلف هل كان هـــذا الاسم يطلق على وهران أو المرسى الـكبير أو عليهما معا[3] وأما اسمها الثاني الذي اشتهر في العصر الإسلامي وهو وهران ، فحول تفسيره روايات أقربها إلى الصواب أنه اسم معرب عن الاسم البربري الزناتي إيران جمع « آر » أي الاسد ومعنى ذلك أن هذه المدينة مدينة الاسود ، ويؤيد هذا التفسير اسمها القديم وهو « ايفري » وهو اسم يدل على الاختفاء في اللغة البربرية ، وقد كانت المدينة في القديم محاطة بغابة وأدغال ، ولا يبعد أن يكون هناك بعض الحيوانات ومنها الاسود كانت

---

(1) ياقوت الرومي : معجم البلدان مج 6 ص 385

(2) توفيق المدني : جغرافية الجزائر ص 133

(3) دائرة المعارف الاسلامية مج 3 ص 1061

تعمرها فسمّاها البربر لذلك باسم مدينة الأسود لمجاورتها لها ، ثم طرأ على الكلمة تطور في الاستعمال ، فصارت في النطق وهران بكسر الواو ثم فتحت للتخفيف .

وأما تاريخها قبل الفتح الاسلامي فيسوده الغموض . وبعد الفتح الاسلامي كانت وهران قرية بربرية صغيرة تابعة لتلمسان ، وفي سنة 290 هـ تطورت هذه القرية البربرية المهملة إلى مدينة ثم اختطاطها في العهد الاسلامي على يد جالية أندلسية كان يتزعمها محمد بن عون ، ومحمـد بن عبدون وغيرهما من البحارة الأندلسيين ، وكانوا ينتجعون موقع المدينة فاتفقوا مع قبيلتي نفزة وبني مزقن ، وهم من أزداجة الزناتية الموالية للأمير الأموي بالأندلس على تأسيس المدينة ، فأسسوها في هذه السنة (1) وذهب أبو راس(2) إلى أن تاريخ تأسيسها كان سنة 290 أو سنة 291 هـ . واستوطنها الناس سبعة أعوام وفي سنة 297 هـ . زحفت إليها قبائل كثيرة يطالبون أهلها باسلام بني مزقن إليهم لدماء كانت بينهم فأبى أهلها ذلك ، وحاربوهم وحاصروهم ، ومنعوا عنهم الماء ، فخرج عنهم بنو مسقن أو مزقن ليلا هاربين ، واستجاروا بازداجة فأجاروهم ، واستطاع المحاصرون أن يحتلوا المدينة وأن يغنموا ما وجدوه فيها ، وأن يخربوها ويضرموها نارا .

ثم رجع إليها أهلها في سنة 298 هـ بأمر حميد دواس بن صولات (ويقال داوود) عامل تاهرت من قبل الشيعة ، وابتدأوا بنيانها ، فعادت المدينة بعد قليل أحسن مما كانت عليه من قبل ، وولى عليهم داوود بن صولات اللهيصي

---

(1) البكري : المسالك والممالك ص 70 .

(2) عجائب الاسفار مخطوط المكتبة الوطنية رقم 1632 .

محمد بن أبي عون(1) فلم تزل في عمارة وكمال ، وزيادة وحسن حال ، إلى أن أوقع يعلي بن محمد بن صالح اليفرني بأزداجة بجبل فيدر ، وفرق جماعتهم في جمادي من سنة 343 هـ ودخل يعلي مدينة وهران وملكها ونقل أهلها إلى مدينته ، وأخرب وهران ، وبقيت كذلك سنين ، ثم تراجع الناس إليها ، وبنيت من جديد ، وعمرها الناس .

وصفها في القرن الرابع :

وحدثنا ابن حوقل الذي أتم كتابه حوالي سنة 367 هـ / 977 م عن مدينة وهران فقال فيها : أنها مدينة محدثة ، ولها سور ، وهي لطيفة جدا وسورها من تراب طابية ، وماؤها من عين ماء جارية بها ، والمواشي بها كثيرة ، ولها مرسى في غاية السلامة والصون من كل ريح ، وما أظن له مثيلا في جميع بلاد البربر ، وعليها سور ، وماؤها من خارجها جارٍ عليها في وادٍ عليه بساتين ، وفي أهلها دهقنة وحذق ، وهي فرضة الأندلس ، ويقول : إنها الآن في ولاية يوسف بن زيري بن مناد ، ويقول صاحب الاستبصار (2) : إن مدينة وهران (يعني في القرن السادس الهجري) كانت مدينة كثيرة البساتين والثمار ، ولها ماء سائح وأنهار كثيرة وأرحى وعيون ، وهي من غرر البلاد ، وفيها آثار قديمة ، وأهلها موصوفون بعظم الخلق وكمال القامة والأيد والشدة .

وهكذا تقدمت المدينة بعد قرنين تقدما كبيرا ، ووصفها ياقوت الرومي الذي انتهي من تأليف كتابه معجم البلدان سنة 621 هـ بقوله : إنها مدينة

---

(1) المسالك والممالك للبكري ص 70

(2) الاستبصار كتاب مخطوط لمؤلف مجهول كان يعيش في القرن السادس الهجري .

صغيرة على البر الأعظم من المغرب بينها وبين تلمسان سري ليلة[1] وينسب أحد العلماء إليها .

ودخلها في أواخر القرن الرابع ابن خميس أحد العلماء الكبار ، والفقهاء الأخيار[2] فوقعت منه كل موقع بعد ما دخل الجزائر قبلها وكانت قريبة عهد بالبناء فقال : أعجبني بالمغرب مدينتان بثغرين : وهران محمد بن حزر ، وجزائر بلكين .

وكانت العلاقات بين وهران والأندلس وطيدة في مجال التجارة ، فكانت تصدّر القمح وغيره إليها ، ووصفها الادريسي في منتصف القرن السادس ، فقال : إن مدينة وهران مدينة بحرية وعليها سور تراب متقن ، وفيها أسواق كثيرة ، وصنائع متعددة وتجارات رائجة وهي تقابل مدينة المرية من ساحل الاندلس ، ومرساها الكبير ترسي به السفن الكبار ، وهو يستتر من كل ريح ، وليس له نظير في مراسي ساحل البحر من بلاد المغرب .

وهي تمتاز بالخصب ، ويوجد فيها العسل والزبد والبقر والغنم .

ثم ذكر العلائق التجارية بينها وبين الأندلس ، فقال : إن مراكب الاندلس إليها مختلفة ، وفي أهلها دهقنة ، وعزة انفس ونخوة[3] .

---

(1) معجم البلدان مج 5 ص 385 .

(2) عجائب الاسفار لأبي رأس المخطوط بدون ترقيم .

(3) وصف شمال أفريقية للادريسي ص 57

وصفها في القرن العاشر الهجري :

ومر بها في القرن العاشر الهجري الرحالة الوزان - محمد بن الحسن(1) فقال في وصفها : إنها مدينة كبيرة فيها ستة آلاف مصباح أي ستة آلاف منزل ، وفيها كل المرافق وقد سورت بسور ، والنصف الاكبر منها في سهل ، والآخر يقع في ربوة ، وأكثر سكانها صناع تقليديون ونساجون ، وسكانها يستقبلون الضيوف بفرح وأدب ، وكانت بينهم وبين القطلونيين والجنوبيين معاملات ، وما زالت بها إلى الآن دار تدعى دار الجنوبيين .

احتلال المدينة من قبل الاسبان :

وتحدث الرحالة الوازن عن الحملة الاسبانية التى وجهت إلى وهران لاحتلالها ، فقال : إن فرديناند جهّز حملة بحرية باعانة الكاردينال كزيمناس ، وهاجمت المدينة واحتلتها سنة 916 هـ وعلل احتلالها بأن سكان المدينة لم يكونوا منظمين في حربهم ، اذ خرجوا منها في فوضى ، وتركوا المدينة فانتهز الاسبان الفرصة واحتلوها ، وفتكوا بسكان المدينة الباقين ، وقد ذكر جورج مارمي في كتابه(2) : إن الاسبان كانوا يطمحون الى احتلال وهران وقد وصلوا الى هدفهم سنة 1605 حيث احتلوا المرسى الكبير ، وفي سنة 1509 م / 915 هـ زحفوا إلى المدينة واحتلوها وفي 17 ماي من هذه السنة 1509م قتل بدرو نافارو في المدينة نحو 4000 ألف مسلم ، وأرسل نحو 8000 أسير إلى أسبانيا ، وقد أعانهم على إحتلال المدينة بعض الناقمين على سلطان تلمسان وعلى سكان المدينة .

---

(1) الوزان ، محمد بن الحسن : رحلته ج 2ص 841 - بالمكتبة الوطنية رقم 59533 .

(2) مارمي جورج حول المدن الجزائرية ص 1061 .

وبعد احتلال المدينة بدأت مرحلة جديدة في تاريخ هذه المدينة ، وبدأ صراع حربي عنيف بين الاسبان المحتلين من جهة ، والأهالي وجنود الاتراك من جهة أخرى ، وهذا ما ينبغي أن نخصه ببساطة كافية .

وهران تحت الاحتلال الاسباني :

إن فترة الاحتلال الاسباني لمدينة وهران ، والحروب العنيفة التي كانوا يجابهونها من قبل المسلمين طيلة ثلاثة قرون تحتاج إلى تأليف خاص بها كما فعل الأستاذ توفيق المدني في كتابه حرب الثلاثمائة سنة ولكننا هنا نحاول أن نذكر خلاصة موجزة عن هذه الحروب الطويلة المتعددة ، على أننا نسجل مقدما أن مصادرها باللغة العربية قليلة متفرقة في مظان مختلفة ، وأهم ما نذكره هنا هو البَسْطَة الموجزة التالية : إن مدينة وهران وقع احتلال مرساها سنة 911 هـ 1505 م ثم وقع احتلال المدينة نفسها سنة 914 هـ / 1508 م وفي هذه السنة مات العلامة الونشريسي أحمد صاحب المعيار بفاس ويذكر الحافظ أبو راس والصباغ وغيرهما أن احتلال المدينة كان سنة 915 هـ بمداخلة يهودي غدر بالمسلمين ، وذلك أن اليهود الذين كانوا بوهران تحت ذمة المسلمين أتى واحد منهم يقال له زاوي بن كبيسة المعروف بابن زهو بجيش النصارى للمدينة غفلة ، وأدخلهم ليلا سراً بالحيلة ، واستطاع الجيش بعد ذلك أن يفتك بالمسلمين وان يأخذ الحارسين وهما عيسى بن عريب العربي ، والقناس بن طاهر العبد لاوي[1] وارتفع شأن اليهود عند الاسبان بعد ذلك وكانوا يكلفون بجباية بني عامر .

وفي سنة 925 هـ زحف الاسبان إلى قلعة بني راشد بنواحي معسكر

---

(1) المازري : طلوع سعد السعود مخطوط ص 149

لمحاصرة إسحاق أخي عروج الذي كان متحصنا بها ، وحاصروه ثم استأمنهم فأمنوه ، ثم غدروا به وقتلوه .

وفي سنة 960 هـ / 1552 م فتح الاسبان مزغران تحت قيادة الكوديث « الفرطاس » قائد وهران ، وسمع به خير الدين باشا فاقبل إليه في جيوش كثيرة وهاجمه هو وجيوشه وأثخن فيهم قتلا وأسراً ، وفتح خير الدين مزغران عنوة في 15 ذي القعدة الحرام سنة 965 هـ 1557 م وقد سجل هذا الفتح أحد الشعراء المعاصرين له في رجز يقول فيه صاحبه :

1 - فتح خـير الدين مزغرانا مرتجبـا لفتحـه وهرانا
2 - في ذي العقدة زوال الجُمُعة سنة هِـرِّ فصحّ فاسمعـه
3 - وهـذه القصة عند الناس مشهورة بقصـة الفـرطاس

وكانت الدولة الزيانية في النزع الأخير من حياتها ، وقد استطاع الاسبان أن يزحفوا إلى تلمسان وأن يحتلوها سنة 959 هـ وأن يقيموا بها 13 يوما قد انتهكوا فيها حرمة جامعها الأعظم . وكانوا قبل هـذا التاريخ قد دخلوا مع أميرها أبي عبد الله بن المسعود في 14 ألف جندي عنوة ، وأقاموا بها نحو شهرين ، ثم خرجوا عنها ورجع إليها ملكها أحمد ، وخرج أبو أحمد لقتاله ثم رجع إلى تلمسان فطرده أهلها والتحق بوهران ومات بها بالوباء وتنصر أولاده من بعده .

ويذكر المازري أن غزو الاسبان لتلمسان إنما كان بسبب اختلاف أمرائها وملوكها ، وبينما كان الاسبان مستقرين بوهران حاول ملوكهم أن يوجهوا حملات أخرى لاحتلال مدينة الجزائر ، والقضاء على دولة الاتراك بها ولـكنهم

أخفقوا في محاولاتهم تلك ، وقبل نزول الاتراك بها استطاعوا أن يحتلوا برج المرسى ، وان يقيموا فيه مدة وفي سنة 946 هـ/ 1539 م غزاهم خير الدين بعد أن استقر بالمدينة سنة 915 هـ/ 1509 م واستطاع أن يطرهم من البرج وان يلحقه بالمدينة .

الحملة الاسبانية على مدينة الجزائر :

وفي سنة 948 هـ 1541 م قدمت حملة الاسبان الكبيرة على مدينة الجزائر وكان حاكم المدينة وأميرها حينئذ هو حسن آغا ، وكان قد حصّن المدينة ، واستعد لردّ الحملة ، وكان عدد جنود الحملة على ما يذكر المازري نحو 70 ألف جندي . وحاصروا المدينة في سفن حربية غطت المياه المقابلة للمدينة ، ونزلت الجيوش الاسبانية ، وعسكرت بالحامة ثم زحف شارلكان ملكها وقائدها الى برج الطاووس الذي دعي بعد ذلك بحصن الامبراطور ، وببرج مولاي حسن - وبدأت المعارك العنيفة بين الطرفين ، وأخيراً انهزم الاسبان وقتل كثير منهم وغنمت معداتهم الحربية ، ورجعوا خائبين ، وبعد هذه المعركة الكبيرة أقصر الاسبان عن محاولة تملك مدينة الجزائر ، وقنعوا ببقاء وهران في أيديهم .

حسن بن خير الدين ووهران :

لقد كان حسن بن خير الدين يشعر بألم دفين من بقاء وهران تحت الاحتلال الاسباني ، وحاول أن يحررها من هذا الاحتلال ، فسار إليها بجيوش برية وبحرية ، وحاصرها وألحّ عليها ، واستطاع أن يهدم الحصن الأعلى للمرسى سنة 970 هـ ثم أقلع عنها وتركها .

محاولات متعددة لفتح وهران :

وتكررت محاولات فتح مدينة وهران من يد الاسبان في فترات مختلفة . فحاول ابراهيم باشا فتحها في أواسط القرن الحادي عشر أي حوالي 1050 هـ ونصب حولها المدافع ورماها بالقنابل من جبل المائدة أو جبل هيدور ولم يستطع فتحها ثم تركها .

وهران على عهد البايات :

وكان البايات الذين تولوا حكم المقاطعة الوهرانية بعد ذلك ، حينما وكانت المقاطعة تجمع بين حكم تلمسان ومعسكر ومازونة ومليانة ونواحيها أخذوا يحاولون فتح مدينة وهران ، وافتكاكها من يد الاسبان وقد بذلوا في سبيل ذلك جهودا كبيرة ، ومن ذلك ما حاوله البـاي الأول وهو البـاي شعبان الزناقي .

الباي شعبان الزناقي :

وكان بايا مستقرا بمازونة في حدود سنة 1090 هـ وقد غزا وهران في فترات مختلفة وتعددت بينه وبين الاسبان الحروب ، وألحق بهم عـدة هزائم ، وأجحرهم في المدينة حتى لم يستطيعوا أن يكيدوه الا بالجواسيس .

ومن حروبه معهم أنه زحف إليهم مرة في نحو 4 آلاف جندي ، وفيهم ثلاثة آلاف فارس وجاء الاسبان بجنودهم ، ومعهم مردة العرب وشياطينهم من بني عامر وقيزة وغمرة وكرشتل ، والتقى الفريقان بكدية الخيار وتقاتلا ثم انهزمت جموع الاسبان ، وأسر كثير منهم ، وطاردهم الباي إلى وهران ، وقاتلهم حتى استشهد سنة 1098 هـ / 1687 م ، ولما قتل بقيت جثته بأيديهم ،

فحزوا رأسه ، وعلقوه على الباب ، وأخذ المسلمون الجثة ، وتركوا الرأس لما لم يقدروا عليه ، وقبره خارج وهران يعرف بقبر سيدي شعبان ، ويقول الجامعي : إن رفاته حمل إلى الجزائر ، ودفن بها ، وكان الذي قتله هو أحد المتعاونين مع الاسبان ، وكان هؤلاء يدعون بالمغطّسين . ولما مات الباي شعبان فرح الاسبان بذلك واشتدّت شوكتهم على المسلمين ، وفي هذه الأثناء استطاعوا ان يغزوا سيدي المهاجي بتاسالة ، وأن يأسروه هو وبناته ثم أنقذه الله منهم .

محاولة مولاي اسماعيل الانتقام للباى شعبان :

وقد غضب مولاي اسماعيل لقتل الباي شعبان ، وجاء من المغرب بجيوش كبيرة ، وزحف إلى وهران سنة 1112 هـ / 1700 م وقيل سنة 1104 هـ /1692 م ونزل بجبل هيدور ، وحاصر المدينة وقاتل الاسبان مدة ، ولما لم يقدر على الحاق ضرر بالمدينة لتحصينها ببرج مرجاجو ارتحل عنها وعاد إلى المغرب وفي الطريق هاجمه لاعراب .

الباي بو الشلاغم المسراتي :

وقيّض الله الباي بو الشلاغم للمقاطعة الوهرانية ، واستقر بمازونة في أوائل القرن الثاني عشر الهجري وكان الباشا فى الجزائر حينئذ هو محمد بكداش ، وقد اهمه امر وهران فأوعز إلى ابي الشلاغم ان يضايق الاسبان بها ، ثم ارسل إليهم صهره ووزيره اوزن حسن في جيوش كثيرة من الجزائر ، وكانت الامداد تأتيه من مرسى ارزيو ، وحاصرها وحارب الاسبان بها حروبا عنيفة حتى فتحها الله على يده سنة 1119 هـ وقد اشار إلى ذلك ابو راس في سينيته ، كما اشار إلى ذلك محمد التغريري في رجزه الذي يقول فيه :

الحَمْدُ لله الذي قَدْ فَتَحَا وَهْرانَ عَنْ أيْدِي الرجالِ الصُلَحَا

وَقهَرَ القَوْمَ اللئَامَ الفَجَرَةْ وَرَفَعَ الاسْلاَمَ فَوْقَ الْكَفَرَةْ

في مُدةِ السُّلطَانِ فخرِ النَّاس أحْمَدَ خَاقَانَ أبِي القَنَّاسِ

مَنْ مَلَكَ الْبَرَّيْنْ وَالْبَحْرَيْنْ ومِصْرَ وَالشَّامَ بِدوُنِ مَيْنِ

يَا سَائلاً عَمَّا بوَهْرانَ ظَهَرْ من اَخْذِهَا وَفَتْحِهَا كَمَا انْتَشَرْ

أخَذَهَا الكُفَّارُ بالثَّبَاتِ فِيمَا رَوَيْنَاهُ عَنَ الثِّقَاتِ

سَنَةَ أرْبَعٍ وعَشَرَةٍ مَضَتْ مِنْ بَعْدِ تِسْعِمِائَةٍ قَدْ كَمَلَتْ

فَمِئتَانِ مَعَ خَمْسَةِ سِنينْ عِدَّةُ مُكْثِهَا بِأيْدِي الْمُشْرِكِينْ

ثُمَّ بَعْدَ العَزْمِ مِنَ الاَلهِ وَجَاءنَا الفَتْحُ وَنَصْرُ اللهِ

فَفُتحَتْ سَنَةَ تسْعَةَ عَشَرَ وَمِائةٍ مِنْ بَعْدِ ألْفٍ تُعْتَبَرْ

عَنْ يَدِ مَنْ قَدْ صَيَّرَ الجزائرْ جَنَّةَ كُلَّ قَاطِنٍ وَزَائِرْ

مُحَمَدٍ بَكْدَاشٍ فَخْرِ الدَّوْلَةْ وَحَسَنٍ صِهْرِهِ عَالِي الصَّوْلَةْ

وقيلت في هذا الفتح عدة قصائد ذكرها المازري ومحمد بن ميمون في كتابه التحفة المرضية وابو راس في مختلف كتبه .

ودامت وهران تحت الحكم الاسلامي بعد فتحها ، وطرد الاسبان عنها ، مدة عادت فيها عاصمة لباي المقاطعة الوهرانية الذي جمع تحت ولايته تلمسان ومازونة ووهران .

عودة الاسبان إليها :

ثم هاجم الاسبان من جديد مدينة وهران وزحفوا إليها بقوة كبيرة سنة 1143 هـ / 1730 م وفي هذه المرة عجز الباي أبو الشاغم عن مدافعتهم عنها ،

فخرج منها ، والتجأ إلى مستغانم فاحتلها الأسبان ، وبقي أبو الشلاغم بمستغانم إلى أن توفي ، وذفن بالمطمر منها ، وبنيت على ضريحه قبة .

محمد باي الكبير وفتح وهران :

لما تولى محمد باي بن عثمان حكم المقاطعة الوهرانية أخذ يضايقها مضايقة شديدة ، وكان قد أرسل إليها طائفة من الطلبة المرابطين ليضايقوها ويناوشوها القتال ، وفي سنة 1206 هـ 1791م تحرك محمد عثمان باي الكبير في مائة فسطاط ، وعسكر بتليلات ثم أقلع عنها وزحف إلى حمام بو حنيفية ثم سار من هناك إلى الزفيزف فالقمدة ثم جنين مسكين، ثم مرّ بتليلاب وسار منها إلى « وهران » وحاصرها حصارا عنيفا ، وحضر معه حروب الفتح جموع من الطلبة والفقهاء ، منهم محمد بن المولود المخيسي ، والفقيه الشيخ محمد بن أبي طالب البلداوي المازوني ، واستقر الباي بالمبرك غربي وهران ، وأخذ يحارب الأسبان حتى فتحها سنة 1206 هـ 1791 م واختلف في فتحها هل كان عنوة أم فتحت بتأثير الزلازل التي أضعفت المدينة ، أضعف من حصانتها .

ويقول أبو راس أن الباي محمد بن عثمان لما ضايق وهران كثيرا ما طلب منه الأسبان السلم والتوثيق فأعطاهم ذلك على أن يخرجوا بأنفسهم وأمتعتهم من غير امتهان ، فخرجوا عنها ، وتركوا كل ما فيها للأمير (1). وهنا يحسن بنا أن نذكر جدولا لبايات وهران الذين ورد الحديث عنهم منقطعا في مصادر مختلفة .

---

(1) طلوع سعد السعود للمازري ص 199 .

جدول بايات المقاطعة الغربية

في مازونة :

1 - أول باياتها حسن بن خير الدين باشا ، وهو أول من حارب الاسبان حربا عنيفة بوهران ، وكادَ يفتح المدينة لولا ما شغله عنها من أمور سياسية طارئة .

2 - الباي أبو خديجة .

3 - الباي مواق ؛ ومات مسموماً من سم وضعته له زوجته .

4 - الباي السائح ؛ وبقي في الملك احدى عشرة سنة .

5 - الباي ساعد ؛ وتولى بعده نحو عشر بايات .

6 - ثم الباي محمد عيسى ؛ وهو السادس عشر من باياتها .

7 - الباي شعبان الزناقي الذى استشهد في جهاد الأسبان بوهران .

في تلمسان :

من أشهر باياتها عثمان باي ، ويوسف المسراتي ثم جمعت تلمسان ومازونة لباي واحد سنة 1098 هـ / 1686 م .

عواصم الايالة :

أول عاصمة للايالة الغربية هي:

1 - قلعة بني راشد التى قتل فيها اسحاق أخو عروج وخير الدين .

2 - معسكر .

3 - وهران بعد الفتح الأول سنة 1118 هـ / 1706 م .

4 - ثم مستغانم ثم معسكر ثم وهران بعد الفتح الثاني .

بايات وهران :

1 - أول باي لمدينة وهران هو مصطفى بو الشلاغم بن يوسف بن اسحاق المسراتي الذي جمع بين الايالة الشرقية والغربية ، وقد تولى باياً على مازونة وتلمسان سنة 1098 هـ / 1690 م ، ونقل كرسي مملكته من مازونة وتلمسان معا ، إلى القلعة ، ثم إلى معسكر ، واختارها قاعدة لايالته لتوسطها بين مازونة وتلمسان ، ولما فتح مدينة وهران بمعونة الباشا محمد بكداش وصهره أوزن حسن سنة 1119 هـ / 1708م نقل كرسي مملكته من معسكر الى وهران، وأقام بها مدة إلى أن هاجمه الأسبان بجيوش كثيرة، فخرج عنها إلى مستغانم، واحتلها الأسبان وبقي بو الشلاغم بمستغانم حتى توفي سنة 1146 هـ وأوصى أن يدفن في القبة التي بناها له ولعقبه أواخر شعبان عام 1126هـ ودفن فيها وقد بني بوالشلاغم بمستغانم برجاً جليلاً دعى فيما بعد ببرج الأتراك ، وبنى آغته برجاً آخر دعي ببرج الأمحال ، وتوفي الآغة سنة 1150 هـ وخلفه في منصبه أكبر أبنائه وهو ابن عودة يوسف .

2 - ابن عودة يوسف بن محمد بن اسحاق المسراتي وقد بقي في الملك سنة واحدة ومات بتلمسان بالوباء سنة 1147 هـ / 1734 م

3 - أخوه مصطفي الأحمر المسراتي وتولي بايا سنة 1147 هـ ، ثم سقي السم ومات بمستغانم .

4 - أخوه محمد أبو طالب الجاجي الذى تولى مكان أخيه مصطفى ، وبقي في الملك 9 أعوام ومات قتيلاً .

5 - وأخوه قائد الذهب الذي تولى الحكم يوم موت أخيه الجاجي سنة 1155 هـ / 1742 م ودام في الحكم 6 أعوام ، ثم ثار عليه صهره وهو الحاج عثمان بن ابراهيم ، والتجأ إلى الاسبان بوهران ثم خرج عنها إلى تونس ، وأقام بها مدة ، ثم عاد إلى المقاطعة الوهرانية واستطاع أن يتولى الحكم بعد الباي السابق(1) ، ويلاحظ المازري أن عهد المسارتية هو أفضل عهد ، وهو يستغرق عهد البايات الخمسة السابقين ، وقد أكد ذلك بقوله : أن المسارتية هم فضلاء البايات بالمغرب ، ولهم نسل قليل .

6 - عثمان باي بن ابراهيم (وقد ينطق بهعصمان وقد تولى الحكم بتلمسان حوالى سنة 1160 هـ / 1747 م وحاول المسارتية أنصار البايات السابقين أن يقتالوه فأخفقوا ، وتمكن منهم ، وقتلهم ونجا منه ابن الزرقاء ، وعابد اللذان استجارا بضريح سيدي محمد بن عودة بغليتة فعفا عنهما ، ودام في حكمه مدة تسع سنوات ، وتوفي بمعسكر سنة 1169 هـ / 1755 م .

ومن مآثره بناؤه الجامع الأعظم بمعسكر :

وقد نقش عليه اسمه ، وتاريخ البناء مكتوب على حجر فيه ونص ما جاء فيه : أما بعد فقد أمر ببناء هذا المسجد المبارك المحمود المعظم القامع للمعدي ،

---

(1) سعد السعود ص 222

من جمع بين الشجاعة والندى ، وطلع على الناس بدر هدى ، صاحب لواء الحمد الاسمى ، ومالك أزمة المجد الأسمى ، حاج الحرمين الشريفين . . . مولانا الحاج عثمان باي بن السيد ابراهيم خلد الله ملكه عاليا ، وعلى الأمة وليا ساميا ، وكان ذلك في شهر شعبان سنة 1160 هـ / 1747 م .

ثم بنى الدار والقبة الملاصقة للجامع الأعظم بمعسكر ، وتعرف عند العامة بقبة الباي ابراهيم لدفنه فيها ، وقد غزا هذا الباي مدينة وهران مرات عديدة ، ولم يستطع فتحها ، وتوفي رحمه الله سنة 1170 هـ 1756 م وكان آغته هو الشريف الكرطي التلاوي ، وخليفته هو اسماعيل بن البشير البحثاوى .

7 — حسن باي وقد تولى حكم المقاطعة الغربية سنة 1170 هـ / 1756 م ثم هرب من امارته الى اسطنبول .

8 — أبو اسحاق ابراهيم باي المليانى . وقد تولى الحكم سنة 1170 هـ / 1756 م وكان محبا للعلماء ومعظما للصالحين ومن مآثره بناؤه برج العسكر بمعسكر وأنه أمر أن يكتب اسمه وتاريخه عليه . ونص ما كتب فيه هوقوله : أمر بتشييد هذا الفندق (الشكنة) مولانا ابراهيم باي الايالة الغربية وتلمسان ، وكان الفراغ منه في رمضان سنة 1176 هـ / 1762 م .

وتوفي سنة 1185 هـ / 1771 م ، ودفن بمعسكر بالقبة التي بناها الحاج عثمان لسيدي عبد القادر الجيلاني ، وكان آغته هو السيد اسماعيل بن البشير البحثاوي الذي سميت مدينة العرقوب باسمه في معسكر ، ومدح هذا الآغة ولد مولاي الشريف بن سحنون فقال :

لقد نلت الحسن مع الزيادة   لما فيك للناس من افادة
يا من وقاك الله من مساوي   وأرقاك للعلا يا بحثاوي

9 – الحاج خليل باي: تولى الحكم سنة 1185 /1771 م و كان مبغضا للعلماء وأولياء الله الصالحين وغيرهم، من أهل النفع، وتوفي بتلمسان سنة 1193 هـ/ 1778 م.

ودفن بقبة سيدي محمد بن يوسف السنوسي، ومن مظالمه أنه اعتدي على الشيخ ابن ترفاس الذي غزاه، وأخذ قيطنته، وفرق طلبته، وهم بقتله، ثم عفا عنه، وتوفي الباي، ثم توفي بعده أبو ترفاس سنة 1192 هـ/ 1778 م وفي هذه السنة توفي الشيخ عبد القادر المشرفي فرثا، تلميذه أبو راس بقصيدة منها قوله:

لَقَـدْ كَانَ لِلإِسْـلَامِ كَهْفًا وَمَلْجَأً

تَراهُ فِي أَقَـلِّ الشُّؤُونِ يُبَادِرُ

ووقع في عهد هذا الباي قحط شديد، ودام حتي منتصف سنة 1191 هـ 1777 م ثم زال وأخصب النـاس. وأشار الشاعر الشعبي سيدي الأخضر بن خلوف الى هذا القحط بقوله:

بِتِينْ وَالثَّـلَاثِينْ تَقْحَطْ العِبَـادْ

وِنِصْفْ عَامْ مِنْ بَعْدْ تَذْهَبْ الـكَثْرَا

وكان آغة هذا الباي هو السيد اسماعيل بن البشير البحثاوي. وكان البايات التسعة السابقون يتخذون قاعدة ايالتهم مدينة معسكر، وكان لهم اعتناء شديد بالجهاد ومحاربة جيوش الاحتلال. بوهران، وقد تمكن أحدهم وهو أبو الشلاغم أن يفتك وهران منهم وأن يطردهم عنها، ثم استطاعوا أن يعودوا اليها كرة أخري.

10 - ابو عثمان المجاهد محمد بن عثمان الباي الكبير :

وهو باي الايالة الغربية وتلمسان الذى قبضه الله افتح وهران ، ومدافعة الاسبان(1) وقد تولى سنة 1192 هـ / 1779 م ، وكان من أهل البلاغة والفصاحة. وهو ثاني ملوك العثمانية خلافا لما في أنيس الغريب والمسافر لمسلم بن عبد القادر الذي خصصناه بهذه المقدمة من أنه هو أولهم وهي (قوله واهية) وبه رفع ذكرهم ، وانتهى إليه فخرهم ، وكان رجلا جسميا أسمر اللون ، محبا للعلماء والصلحاء ، سريع الرضا مكثرا لغزو النواحي الصحراوية ، وقد استطاع أثناء ولايته أن يفتح الأغواط والشلالة وعين ماضي ، وأن يصل في فتوحاته إلى شراعة وكبدانة ومزاب وان يدوخ الأعراب الذين كانوا يتمردون على من كان قبله كما يقول المازري وغيره .

وفي عهده استتب الأمن « وحصلت العافية ، وتآخت القبائل ، وارتفع الفساد » وأشار إلى ذلك شاعر الملحون الشيخ الأكحل في عروبيته :

1) تأتي العافيـــة في زمان ميم وحا ن
هجّ وزد حرفـــين قول ميم ودال(+)

2)تضحي القبائل أخوةً جَمِيعْ مَصْطلْحَا ن

. . . .

وكان محمد باي الكبير ينتسب إلى الاكراد ، ويحب العلماء ، ويقربهم إليه ، ويستشيرهم في أموره ، وقد بقي في الحكم نحو ثمانية عشر عاما .

---

(1) المازري سعد السعود ص 229 .

(+) مجموع ذلك هو 92 سنة أي سنة 1192 هـ .

ووقع قبل توليه الحكم قحط شديد دام حتى منتصف سنة 1191 هـ/1777م،
وقد أشار إلى هذا القحط الشاعر الشعبي سيدي الأكحل بن خلوف في قوله كما
أشرنا إلى ذلك من قبل :

ستين والثلاثين تقحط العباد ونصف عام من بعد تذهب الكثرا

ولما تولى ارتفع القحط واخصب الناس ، ولكن مسلم بن عبد القادر يلاحظ
أن القحط قد امتدّ بعد توليه للحكم سنة 1192 هـ ، وهلكت أمم كثيرة في
أيامه بالطاعون الذي فتك بالعباد فتكا ذريعا وخرج الباي فاراً منه هو ورجال
مخزنه إلى البادية ، وحدث في أيامه زلزال شديد بمدينة وهران مما أعان على
فتحها سنة 1206 هـ . ومن أهم مآثره بناؤه لمسجد بن ناصف بمعسكر ، وبناؤه
لقلعة البرج الأحمر سنة 1207 هـ/ 1792 م ، وبناؤه للمدرسة الجليلة بخنق النطاح
التي يوجد فيها ضريحه بمدينة وهران ، وبناؤه لجامع الباشا أي جامع حسن
باشا الذي كان يرسل إليه الباشا من الجزائر نفقاته ومصاريفه فنسب الجامع
إليه وبناوه أيضا للجامع الأعظم بالبرج .

ومن أعظم مآثره على الاطلاق فتح مدينة وهران .

* * *

فتح وهـــران

لقد اهتم محمد باي الكبير بفتح وهران التي كانت تعاني من احتلال الاسبان ما تعاني ، وحاول ذلك في المرة الأولى بعد توليه للحكم ، ولـكنه لم ينجح في محاولة فتحها ، ثم حاول ذلك في المرة الثانية كما ذكرنا سابقا واستعد لمحاصرتها حصارا شديدا ، وإتخـــذ خطة محكمة لفتحها فأرسل إليها جماعة من الطلبة الشجعان ليرابطوا بأحوازها ، ويضايقوا الاسبان وراء أسوارها ، ثم زحف إليها بجنوده ومعه المدافع ، واحاط بها ، ونصب مدافعه عليها ، وأصلاها ناراً حامية ، وكان يشرف على برج سفرندو ، وبرج الحديد ، وكانت القذائف المدفعية تنقل إليـــه على ظهور الجمال من برج سيق ، وبرج أغبالو وغيرهما[1] وواصل حصارها حتي فتحها سنة 1206 هـ / 1792 م ، ونقل إليهـــا كرسي الايالة وقضى بقية أيامه في ترميمها وتوسيعها .

وقد أصبحت وهران في عهده مدينة غنية زاهرة ، وأرسل اليه الباشا من الجزائر ريشة ثمينة ليضعها على عمامته ، ولم يضعها قبله ولا بعده أي باي من بايات الأتراك لأن هذه الشارة كانت خاصة بالسلاطين الكبار ، وبباشوات

---

(1) راجع الرسالة القمرية لابن زوقة وهي رسالة مخطوطة .

الجزائر وقد كافأه بها الباشا جزاء له على جهاده العظيم ، واستمر محمد باي

الكبير على أعماله الاصلاحية والعلمية الى أن توفي سنة 1213 هـ / 1996 م وقد

أدركته الوفاة ببلاد صبيح عقب عودته من الجزائر (1) وطار الخبر بموته الى

الجزائر فعين الديوان مكانه ولده محمد عثمان باي .

11 - محمد عثمان باي :

وقد تولى حكم الايالة الغربية عقب وفاة أبيه سنة 1213 هـ / 1798 م وبقي في الحكم ثلاث سنوات ثم نقل القصبة من البرج الأحمر الى القصبة التي بأعلى الساحة من ناحية مرجاجو . واشتغل بالعمارة ، وتشييد القصور ، واجراء المياه ثم ركن الى اللهو ، كما يقول المازري . وأراد أن يتشبه في ذلك كما يقول مسلم بن عبد القادر صاحب الأنيس ، بملوك بني العباس ، وبعث الى تونس في جلب مغنيتين له وتسلى معهما أياما وليالي ، وفوض أمور رعيته الى أعوانه ، وجاءه يوما بعض نوابه للمحاسبة فنهره وقال : ان المحاسبة تكون بين يدي الله ، وهكذا بدأت سياسته كما يقول المازري : في التدهور والتراجع وبدأ ما شيده أبوه يتعرض للخراب ، وعلم الباشا بذلك فعزله أقبح عزل ، ونقله الى البُلَيْدَةِ في حالة سيئة ، وحدث في أيامه الطاعون الجارف الذى مات به جلُّ الناس ، وكثير من الشخصيات العلمية كالسيد عبد القادر بن السنوسي بن دحو بن زَرْقة ، والسيد الهاشمي وابن عمهما الفقيه مؤلف الرسالة القمرية مصطفى بن عبد الله وغيرهم من الأعيان .

---

(1) توفيق المدني : محمد عثمان باشا ص 158 .

12 - الباي مصطفى بن عبد الله العجمي :

تولى الملك سنة 1215 هـ / 1800 م وكان رجلا عاقلا غــير أنه كان جبانا ، وظهرت في أيامه الثورة الدرقاوية ، وفي السنة الثانية من توليه الحكم غزا أهل أنكاد . وانهزم أمامهم وقتل آغته بن عودة ، واضطرب رجال المخزن ، وعاد الباي الى وهران مفلولا ، ثم تجرأ الدرقاويون على الأتراك ، وزحفوا الى وهران لمحاصرتهم ، فخرج الأتراك اليهم وحاربوهم ، وهزموهم وعادت الثقة الى رجال المخزن ، ثم عزل هذا الباي واستبدل بمحمد بن محمد باي .

13 - محمد بن محمد باي المقلش :

وقد تولى محمد باي الحكم سنة 1220 هـ / 1805 م وكان الدرقاوي ما زال محاصرا لوهران ، وأبوابها مغلقة فأمر بفتح أبوابهــا ، ثم تصدى لحرب الدرقاويين ، وألحق بهم هزائم متوالية ففروا أمامه ، وتشتت شملهم ، ثم طاردهم وقبض على نساء الدرقاوى وأولاده بمعسكر ، وسجنهم ثم أرسلهم الى الجزائر ، كما أسر كثيرا من الدرقاويين وسجنهم وأوقــع بهم في معارك مختلفــة .

عودة الباي مصطفى بن عبد الله العجمي إلى الحكم :

عاد الباي مصطفى مرة ثانية الى الحكم بوهران آخر سنة 1222 هـ / 1807 م وبقي تسعة أشهر حارب فيها الدرقاويين بمرغوسة وهزمهم ، كما حاربهم أيضا بوادي الخير بعد أن انضمت اليهم قبيلة مجاهر وهزمهم جميعا .

وفي هذه الأثناء جاءه الخبر من الجزائر بتعيينه خزناجيا فيها فسار اليها .

14 - الباي أبو كابوس محمد بن عثمان :

كان هذا الباي أخا محمد الباي الكبير ، ويلقب بالرقيق والمسلوخ وبأبي كابوس . تولى الحكم آخر سنة 1223 هـ/1808 م وبقي فيه نحو خمسة أعوام ، وحارب الدرقاويين ، وقضى على كل أثر لهم ، حتى كان الرجـــل اذا أراد اهلاك غيره يتّهمه بالدرقاوية ليقبض ويعذب شر أنواع التعذيب ، والتجأ الدرقاوي فاراً الى جبل بني يزناس .

خاتمة هذا الباي :

لما اشتدت الحرب بين الجزائر وتونس بعث الباشا الى هذا الباي ليزحف بجنوده الى قسنطينة ، ولما وصل الى وَادِي يَلّل حدثته نفسه بالثورة على باشا الجزائر والبيعة لملك المغرب وتغــيرت أحواله كما يقول مسلم بن عبد القادر ووصل الخبر الى الجزائر ، فغضب الباشا لذلك كثيرا . وعاد الباي الى وهران ، وبينما كان يتهيأ لدخول المدينة اذ وصلت سفن الأتراك من الجزائر مشحونة بالعساكر ، فعزم الباي على تفجير خزينة البارود لتدمير المدينة برمتها ، وجاء اليه رجال المخزن والعلماء ، وهم يحملون بين أيديهم صحيح البخاري ويبكون ، وطلبوا منه التسليم لقضاء الله ، ثم أذعن وسلم نفسه ، فكبل وطالب من عمر آغة أن يدخل المدينة وقد أتى معه بالقفطان وألبسه للباي الجديد ، وهو على قارة بغلي خليفة الباي السابق ، ثم أمر عمر آغا بقتل العثامنية فقتلوا عن آخرهم ، ولم ينج منهم الا من فرّ بنفسه ، ثم عاد الى وهران وتولى عمر آغة قتل الباي السابق بنفسه ، وسلخ رأسه وهو حي وعذبه عذابا أليما ، وملأه بعــد سلخه قطنا ثم أرسله الى الجزائر وقتل أولاده الصفار وذلك سنة 1228 هـ/ 1813 م .

ويقول أبو راس : أنه لما عاد من الحج سنة 1227 هـ / 1812 م أعطاه مائة محبوب ولما قتل ودفن بالجزائر زار قبره وترحم عليه .

15 – الباي قارة بغلي :

كان هذا الباي الجديد صهراً للباي السابق وكان خليفته على مازونة وثار الدرقاوي على هذا الباي فسار اليه بجموعه ، وشتت شمله ، وعاد الى وهران ، وأقام بها مطمئنا ، وفي عهده وقعت ثورة علي عمر باشا بالجزائر عزل أثناءها ، وولى الأتراك مكانه علي باشا ، وقام هذا باعمال خالف بها من سبقه من الدايات ، ومن ذلك تغييره لوزن العملة النقدية حيث نقص وزن الريال الدورو من (15) أوقية الى (12) أوقية ، وحيث نقص وزن الريال العادي من (8) أواق الى (6) أواق فتشاءم الناس من ذلك .

ومنها أن خليفة الشرق أو الغرب الذي كان لا يولى من الجزائر مباشرة بل كان يوليه باي الولاية صار الباشا هو الذي يتولى تعيينه بنفسه مباشرة ، ثم أخذ يتتبع الأتراك بالقتل ، فهرب بعضهم الى وهران وتغافل عنهم الباي قارة بغلي فغضب عليه الباشا ، ولما ذهب الى الجزائر مدّنشا ، ووصل الى أبي خرشفة بأسفل مليانة أرسل اليه الباشا من عزله ثم قتله .

وولى مكانه حسن باي الذي سار بالدنوش الى الجزائر ثم عاد منها الى وهران .

16 – الباي حسن بن موسى :

تولى هذا الباي سنة 1232 هـ/1826 م ويعرف عند العامة بالباهي حسن وهو آخر بايات وهران ، وكان أول أمره طباخاً لأربعين جندياً من الأتراك ، ثم

صار بائماً للتبغ ووصفه صاحب « در الأعيان في أخبار وهران » بأنه كان ذا عقل وسياسة ، وشاهد الباي محمد الرقيق أبو كابوس هذه المزايا فيه فأحبه ، وصاهره ، وقرّبه اليه ، ثم أسند اليه قيادة فليتة .

واتخذ في هذه الفترة كاتبه السيد خوجة صاحب در الأعيان الذي وصفه بالعطف والشفقة على الضعفاء واليتامى والمرضى ، وبتبجيل العلماء والصلحاء . ونقل المازري عن شيخه محمد بن يوسف الزياني في كتابه «دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران» أنه لما استوسق الأمر لهذا الباي فسدت سيرته ، فصار يظلم الناس ويعيث بالرعية وحدث في عهده ، وباء عظيم تكررت عودته ، ومات به خلق كثير ، وممن مات به حافظ العصر أبو راس محمد بن أحمد بن عبد القادر الراشدي المعسكري يوم 15 شعبان سنة 1238 هـ 1822 م .

ودفن بعقبة بابا علي من مدينة معسكر ويقول المازري : أن هذا الباي لأمر أراده الله قد اجترا على العلماء والأولياء ، وكثر ظلمه وسفكه لدماء الأبرياء ، وممن ذهب ضحيته الفقيه محمد بن أحمد الصدمي ، والعالم السيد ابن عبد الله بن حواء الدرقاوي التجيني ، والعالم السيد فرقان الفليتي ، ودفنا معا بضريح واحد بوهران .

ثورة التيجـــاني

وفي عام 1242 هـ / 1826 م ثار على الباي حسن القطب المكتوم السيد أحمد بن سالم التيجيني في نحو 600 من رجال «عين ماضي» وأصحاب الزاوية التيجانية، ومعهم جمع غفير من الصحراويين والحشم، ووصل إلى معسكر ودخلها، ثم خرج منها، والتقى به الباي بعوّاجة من أرض غريس، وحاربه وقضى على جميع أصحابه، وكاد هذا الباي رجالات الحشم، ففتك بأحد عشر رئيسا من رؤسائهم في ضيافة أعدّها لهم، وتنكروا للترك ثم انضموا الى التيجانيين. وفي هذه السنة 1242 هـ/ 1826م حدث قحط كبير، وغلاء عظيم، صار معه الباشا يفرق الأرغفة على الناس، فسمي العام لذلك عام الباشا، وكان الناس يقولون قبل ذلك: «سيأتي الباي حسن، يأكل الرتمة ويريد الرسن» أي يأكل الرعية ويحافظ على العمال.

وفي سنة 1245 هـ/ 1829 م غزا هذا الباي بجيش كبير زاوية الشيخ ابن القندوز القدري التيجاني وكانت زاويته زاوية تعليم وقراءة قرآن، ونهاه آغته مصطفى بن اسماعيل البحثاوي عن ذلك قائلا: ان طلبة هذه الزاوية هم من البرجية والغرابة، وهم قبائل جيشك، وقال له: ابعث الى الشيخ من يأتيك به،

فأخذ برأيه ، وأرسل اليه ابن دهماء العامري ، فدخل عليه في نوالته ، وأهانه ، وحمله الى الباي مكبلا وافترقت طلابه واخذه الباي الى « رهيو » وقتله فيه خنقا ، فبلغ الخبر الى ولى الله ابن قراب فقال : أتى أمر الله ، ياعباد الله ، وأرسل الله على المحلة ريحا عاصفة وزازل الباي وجماعته .

وبعد هذه الحادثة صار الولي المجذوب محمد الوهاصي يقول : ياللعجب كل العجب بالتوفية ، الترك يقتلون بلقندوز ومولاي محمد يموت فيه ، وبموته يحصل الخير للاسلام ، ويحل بالترك الانتقام ، ثم يراقب البحر ، ويقول بالجهر : يا المرا كيش ، أرواح تعيش ، في لحم البقر والدشيش وكان يكرر ذلك حتى مات رحمه الله . هذا مايرويه المازري عن الأحداث الهامة للفترة الأخيرة من العهد التركي . ومن هذه الأحداث التي يرويها المازري وغيره ، أن هذا الباي أرسل الشيخ محمد بن عبد الله المشتهر بابن سحنون ، والمستوطن بضواحي تلمسان ، وحمل اليه ثم أطلق سراحه .

وفي سنة 1244 هـ / 1828 م قتل العالم الجليل محمد بن قريد الغربي شهيدا ببيته بخنق النطاح على يد لصين هاجماه في منزله ، ودافع عن نفسه فقتلاه ، وفي الغد ذهبت زوجتاه إلى الباي شاكيتين فأمر بحملهما في غرارة ورماهما في البحر ، ونتج عن ذلك أثر سيء فظيع في نفوس الجماهير ، ونجا اللصان من القصاص حتى تولى الأمير عبد القادر الامارة بمعسكر فتمكن من أحدهما وسلمه إلى عائلة الشيخ فقتلوه قصاصا .

وبقي هذا الباي بوهران حتى احتلها الفرنسيون بموافقته سنة 1246 هـ / 1830 م ثم نُقِلَ إلى المشرق فمات فيه مغموما(+) .

(+) سونك : الديوان المطرب ص 10

ترجمة المؤلف

مسلّم بتشديد اللام بن عبد القادر الوهراني كما جاء في أول كتابه أنيس الغريب والمسافر وجاء في كتاب الديوان المطرب[1] أنه محمد بن مسلم الوهراني بزيادة محمد وهي زيادة لا نجد لها مستندا صحيحا وكان في شبابه خوجة للآغة المزاري أحد أغوات مخزن الترك بوهران ، ثم ارتقى إلى منصب باش كاتب لدى الباي حسن الأخير بوهران .

وبعد دخول الفرنسيين وهران بمدة يسيرة تحول إلى ناحية عين تموشنت على بعد 75 كلم من وهران وأقام بها إلى أن توفي بها بعد سنة 1832 م / 1248 هـ . وحينما هاجم الفرنسيون الجزائر سنة 1246 هـ / 1830 م وذهب الجيش الوهراني لمدافعته سار مع هذا الجيش وشاهد إنهزام الجيوش التركية ، ودخول المحتلين الفرنسيين مدينة الجزائر وسجل ذلك في رجز مختل ذكر فيه أن ظلم الترك كان سببا في إنهزامهم ، وفي خذلان الله لهم فقال :

---

(1) مخطوط أنيس الغريب والمسافر .

بها ظافـــر

في فج(1) من محرم نال الوطـــر

بعــد قتال ذريع

في أكبـــاله

جمعهم والبـــاشا

أسلبهم الله ملـكهم في حـــاله

بعـــد العصيان والطغيان فلهم

أموالهم أخـــذها والأسلحـــة

غراب البين نص في حرج العقاب

قد اطمأن قلبـــه من العقاب

خـــلاله الجو فمـــد رجـــله

لمـــا طوى ملك الاتراك رحله

أدبهم ربهم لمـــا طغـــوا

عرفهم بغـــدرهم لمـــا بغوا

كأنهم ما كانوا في عـــز وما

تملـــكوا دهرا طويل المنتهى

في عام كه من القـــرن العاشر

كان ابتـــداء الملك بالجزائر

فامتد بهـــا ملـكهم كافا وسين(2)

---

(1) طرس الأخبار مخطوط تحت رقم 4965 بالخزانة العامة بالرباط الورقة 20 – 2 أي في عام 925 هـ .

(2) كافا أي 20 وسين أي 300 ومجموع ذلك 320 سنة .

ولما أن كمل الوعد كان البين

وتأثر لمصير المدينة بعد الاحتلال فقال يرثيها :

دعى عليـــك المزاح ونوحي

على الاســلام وبالدمــع فاسفحي

واحكي زمان الوصل قد تصرما

وركنــا من أركان الدين أنهـدما

وسودّي ثوباً من العـــز سلب

وملكاً شـامخ القواعـد انتهب

وبالاظفار فاندبي خـــدًّا باهي

على فحول بهـم كنت تبـاهي

وارث أبا بـكر وحفصا عمرا

وذا النورين عليـــاً حيـــدرا

لو حضروا ما كنت في ضيم - ولا

يدني حمـــاك بـسوء لا ولا

وشمـلا كان في نظـــام سمطـه

فاختل من بعــد نخلاف بعضه

شغر بغر ، أيـدي سبا تفـرقت

جمـوع وهــران منهـا تمزقت

ثارت بهـــا الحـروب القـديمة

من كثرة الظـلم بهـا والجريمـة

قطر الجزائر به حل البلا
فانحل عقد النظم منه وخلا

قد جهز الاصفر جيشا فاجتمع
وحث في السير حثيث المنتجع

من الباريز ثم قبر الرومية
خوف الصواعق الشراد الرجمية

باب الجزيرة به الموت الزؤام
أوجس منه حذرا من الحمام

حط في كب شهر العيد الكبير
أرسى بمرساة الولي الشهير

أم البهاء دار اللجين والذهب
أم البها دار العساكر والنوب

وفي هذه الأثناء كان الباي مُعَسْكِراً بتليلات ، وكان يتسمع الأخبار التي ترد عليه من الجزائر ، وعاد البرسالي مع طائفة من العسكر ، وأخبره بنتائج الواقعة ، فكتم الخبر وصرف العربان إلى أوطانهم .

ولعل مسلم بن عبد القادر عاد مع الجيش الوهراني في هذه الأثناء أو تخلف عنه قليلا .

واحتار الباي حسن في أمره ، وجمع رجال مشورته ومنهم مسلم بن عبد القادر ، وفاوضهم حول تسليم المدينة إلى الفرنسيين أو الاستعداد للمقاومة ثم مال إلى مكاتبة الفرنسيين ، وتسليمهم المدينة على أن يبقى عاملا تحت

حكمهم ، ووافقه العلماء على ذلك ، ولما خرجوا من مجلسه ندموا على ما وقع عليه الاتفاق ، وغادروا المدينة إلى البوادي ، وقد سجل صاحب طلوع سعد السعود : إنّ المازري وأعوانه وحاشية الباي كرهوا المقام تحت حكم الكفرة ، فخرجوا من المدينة وكاتب الباي الفرنسيين طالباً منهم القدوم إلى وهران « وأخبرهم بفرار أهلها إلى القفار ، وقال لهم دونكم خزائنها » .

وقد لاحظ صاحب طرس الأخبار أن الفرنسيين كانوا يتكالبون على الدينار والدرهم بضراوة ووحشية وقد زحفوا إلى وهران ونزلوا في المرحلة الأولى بالمرسى الكبير ، ولما استوثقوا من المدينة ومن خلوها من الجيش زحفوا إليها واحتلوها ، وأقام الباي تحت حكمهم مدة أشهر . وفي 12 جمادي الأولى منه عام 1238 هـ / 1832 م أبعدوه عن المدينة ونقلوه إلى الاسكندرية حيث أتمّ حياته حزيناً آسفاً كالداي حسين .

وأما مسلم بن عبد القادر فانه قد انتقل إلى عين تموشنت قبل دخول الفرنسيين مدينة وهران وأقام بها إلى أن توفي بعد سنة 1832 م بقليل كما ذكرنا .

أدبه :

كان مسلم بن عبد القادر يمارس الكتابة الديوانية عند الباي حسن قبل توليه للحكم وبعد توليه الحكم شغل منصب باش كاتب عنده . وقد عاصر كاتباً آخر سبقه هو خوجة صاحب كتاب « درّ الأعيان » .

وكتب رسائل عديدة كما ترك مؤلفات منها هذا المخطوط « أنيس الغريب

والمسافر » وكتاب « نظم الجواهر في سلك أهل البصائر » وهو عبارة عن شرح لمفردات لغوية ، وإيضاح لحكم تظمنتها منظومته اللامية ؛ ومن أبياتها :

دع مغازلة مع مغازلة بالغزال النفور اتصف واعتزل

وهي قصيدة ركيكة ثقيلة ؛ ثم يقول في شرح مفردات هذا البيت . دع : أترك . ومغازلة : محادثة ، ومغازلة المرأة والنفور : الشرود .

الاشارة :

المعنى أن المخاطب قال لمخاطبه : إن أردت النجاة فاترك مغازلة النساء اللائي هنّ حبال الشيطان ، وكنْ منهن كالظبي الوحشي النفور .

نثره وشعره :

كان مسلم بن عبد القادر كاتباً وشاعراً أما نثره فهو رغم ما فيه من ألفاظ عامية مقبول تسهل قراءته ، أما شعره فلا يكاد يقرأ لاختلال اعرابه وأوزانه ومن نماذج نثره في كتابه « خاتمة أنيس الغريب والمسافر » قوله : وهي خاتمة نذكر فيها ما تيسرلنا من أخبار السنين الماضية في هذا القرن الذي نحن فيه ، وحوادثه الخاصة والعامة المشاهدة بالعيان ، والمطروقة في الآذان ، والحوادث لا تتناهى بأصل ، ولا تنحصر بعدد ، فالخاصة منها هي ما تختص بأحد معين ، كمثل عزل بعض الملوك بالسخط ، وتحبيس دورهم ، وأخذ أموالهم إلى غير ذلك والعامة هي ما تعم جميع الناس مثل المسغبة وحدوث الطاعون ، وقيام بعض الناس العامة ... »

وأما شعره فرديء وقد ذكر نماذج منه في كتابه « أنيس الغريب والمسافر »

ودون له أحد مريده بوهران وهو محمود بن الطاهر بن حواء قصائد مختلفة في كتابه الذي ألفه للاشادة به ، وبأدبه ومن ذلك قوله من قصيدة :

اعنف بنـــا سيرا يا حادي الابل
وغنّها لتقطع كم من مرحـــل

ومنه قوله من قصيدة أخرى في الرثاء :

1) خليلي من الرمس لينـــك راجع
فتنظر ماذا من الحـــزن واقـــع

2) وتنظر حال الدهر كيف تبدلت
وصار طريق الأمن فيـــه قواطع

حكمه وأمثاله :

لقد اشتهر مسلم بن عبد القادر بالحكم والأمثال ، التي أستفادها من تجاربه الكثيرة في الحياة ، ومن احتكاكه بضروب من الناس ، ونجد في حكمه لمحات أدبية صادقة ومن ذلك قوله :

1) الأدب سلاح ، زمان الكفاح .

2) التقوى زاد ، ماله من نفاد .

3) دبر وشاور ، الدهر كاس ، تسقى منه الناس .

4) لومك للسفلة ، كالحرث في السبخة .

5) اللوم للأحرار ، كالنقش فى الأحجار .

6) صدر الحر ، معدن السر .

7) الغفلة بحر ، ماله قعر .

8) قف مع الحق ، ولا تخش الخلق .

9) القلب سلطان ، حاجبه اللسان .

10) ستركك للغير ، حظك في الخير .

11) الساعي في المهالك ، لاشك هالك .

12) لا تركن إلى الظالم ، وجانب المظالم .

13) لا تصحب الجهال ، كي لا تكون ذا إهمال .

وغيرها من الحكم الكثيرة التي رتبّها على حروف الهجاء وقد شرحها أبو راس المعسكري وكان أحد أصدقائه وأتباعه .

مجالسه العلمي :

يبدو من حكم مسلم بن عبد القادر ، ومما سطره في تاريخه ، وما دونه في قصائده ، أنه ذو نبل وفضل كبير ، وذو أريحية تتجلى من خلال ما كتبه ، أو كُتِبَ عَنْهُ ، وهذا ما جعل أدباء ذلك العصر ينتجعونه من مختلف النواحي ، ويؤمون مجلسه الكريم بوهران ، ويؤثرون الاقامة قريباً منه ، وقد عبر لنا أحد هؤلاء الأدباء وهو محمود الطاهر بن حواء مؤلف زهر الآداب ، عن هذه الحقيقة تعبيراً واضحاً فقال : لم تزل الأيام تدافعني ، وأندية الأدباء تطارحني ، وما نزلت منزلاً إلا أتحفني أهله ، وفاخرني بالشعر قله وجله ، فلم يحصلوا مني على طائل ، لما ملكته من شعر الأوائل والأواخر ... حتى إذا رياح القبول أقبلت ، وهدايا السعادات نحوي أمت ، أممت مدينة وهران ، بقصد أن أجد من تحط لديه رجال المعاني والبيان ... ودلت على ربوة الجادة ، وذروة

السيادة : سيدي مسلم بن عبد القادر فأممت قبلة مجده وفضله ، لتأدية فرض ذممه ونفله ، ثم لما وصلت رحب بي وأدناني ، وناثرته وناظمته فأعياني ، وقصدته الشعراء من كل فجّ ، ومدحته ببديع الشعر المفنّج ، ومن أشهر مادحيه من الشعراء :

1 – محمد بن عبد القادر الفريسي .

2 – وأبو عبد الله بن الشيخ المشرفيّ .

3 – وأبو الفضائل بن عبد الله الجاوي التلمساني .

4 – والعلامة أبو راس الناصري .

5 – ومحمد بن البشير الفريسي .

6 – والسيد أحمد بن المكي .

7 – وأبو العباس أحمد بن الطاهر شارح قصيدته العينية .

8 – ومحمد بن حواء المخلفي .

9 – وعبد القادر بن الجيلاني بن روكش .

10 – والحاج محمد .

11 – وأبو الطاهر مصطفى بن عدّة .

وغير هؤلاء من أدباء ذلك في الجهة الوهرانية ومن نماذج مدحه ماقاله أحد شعراء وهران :

بَيْت مِنَ العِلْمِ بَلْ بَيْتُ القَصِيدِ لَهُ

بَحْرٌ منَ الجُوْدِ إنْ مَسَّتْنِيْ النَّارُ

فِي قُبَّةٍ مِنْ جَدِيدِ المَجْدِ مَنْشَاهُ
أَيْدِي الأَيَادِي لَهَا بَسْطٌ وَأَسْتَارُ

كَمْ ضَارِعٍ مِنْ رَضِيعِ الفَضْلِ مَلْجَاهُ
يَا مَلْجأَ العِلْمِ أَهْلُ الجَهْلِ قَدْ جَارُوا

وقال آخر :

مُسَلَّمٌ لَكَ الفَضْلُ أَنْتَ مَعْدِنُهُ
كُلُّ الأَعَادِي رِقَابُ السِّلْمِ قَدْ خَضَعَتْ

أَحْيَيْتَ ذُرَى العُلَى وَالدَّهْرُ كَلِّرُسُهُ
إِنَّ المَكَارِمَ مِنْ أَخْلَاقِكُمْ بَرَعَتْ

***

تاريخ مسلم بن عبد القادر

حول آخر بايات وهران

إنّ كتاب « أنيس الغريب والمسافر في طرائف الحكايات والنوادر » ألفه مسلم بن عبد القادر ورتبّه كما يقول ابن حواء في كتابه زهر الكتاب على أبواب :

ذكر في صدره بعثته عليه السلام ومعجزاته ، وذكر في الأبواب التالية جملة من الأمثال والحكم ومناقب الصالحين ، وحكايات العشاق ، وذوي العفة منهم ، وخصّ خاتمته بتاريخ بايات وهران المتأخرين وهذه الخاتمة هي أهم ما في الكتاب ، والأبواب الأولى منه لم نعثر على شيء منها وقد اعتمدنا في تحقيق هذا المخطوط على نسختين بالمكتبة الوطنية إحداهما تحمل رقم 2317 والثانية تحمل رقم 1635 ، وقد رمزنا إلى الأولى بالحرف (أ) ورمزنا إلى الثانية بالحرف (ب)

وصف النسختين :

أما النسخة الأولى وهى نسخة « أ » فانها تقع في 12 ورقة من الحجم المتوسط 156 / 200 وسطورها ما بين 20 و 21 سطرا ، وخطها مغربي جميل يعود إلى القرن الثالث عشر الهجري .

وأما النسخة الثانية فانها نسخة جيدة ومخالفة للأولى بعض المخالفة في عباراتها وجملها ، ولعل المؤلف رويت عنه نسختان بروايتين مختلفتين بعض الاختلاف ، وهذه النسخة لا يوجد فيها تاريخ النسخ ولا اسم الناسخ وخطها مغربي جيد ، وسطورها 23 وحجمها متوسط 150 / 210 ، وقد وجدنا في هذا النسخة زيادة في الأخير تتصل بتاريخ آخر بايات وهران .

وأما النسخة الأولى فلا توجد فيها هذه الزيادة ، وهذا ما يدعونا إلى القول بأن النسخة الأولى هي أقدم تاريخاً من الثانية أي أنها كتبت سنة 1232 هـ / 1816 م وأما الثانية فان تاريخها قد يكون متخلفا عن هذه السنة ولعل المؤلف كتبها ونقحها قبل وفاته بقليل أي حوالي سنة 1248 هـ / 1832 م .

ترجمة هذا الكتاب إلى الفرنسية :

وقد ترجم هذا الكتاب إلى الفرنسية دلبش أدريان ونشر الترجمة بالمجلة الافريقية لعام 1873 م .

خلاصة هذه الخاتمة حول تاريخ بايات وهران :

إن هذه الخاتمة تشتمل على تسجيل أحداث البايات بوهران لمدة تستغرق نحو 37 سنة تبتدىء من سنة 1192 هـ / 1778 م وتنتهي باحتلال الفرنسيين

لوهران سنة 1248 هـ / 1832 م وهي تبتديء بتاريخ محمد باي الكبير فاتح مدينة وهران سنة 1206 هـ، وقد تولى حكم المقاطعة الوهرانية سنة 1192 هـ / 1778 م واختصر المؤلف الحديث عنه ، وذكر أهمّ مآثره العمرانية والحربية والعلمية ، وكأنه اكتفى بما كتب عنه أبو راس المعسكري ، والجامعي ، والحلفاوي . وصاحب الرحلة القمرية من رسائل وكتب متعددة ، واستطرد إلى الحديث عن ولده عثمان الذي خلفه على الحكم ، ونهج نهج أبيه في أول أمره ، ثم لم يلبث أن انحرف عن الجدّ إلى الهزل واللهو ، فعكف على اللذات وأهمل شؤون الولاية ، فعوقب بالعزل ، وجاء بعده الباي مصطفى المجميّ وكان حاكما عاقلا ، ضعيف الارادة ، فثار عليه الدرقاويون ، وهزموه في معارك مختلفة ، ودخل الخلل على الحكم التركي في الولاية الوهرانية على عهده ثم عزله الباشا ، وولى مكانه الباي السابق محمد بن محمد باي الكبير ، وجاء إلى وهران وكان الدرقاوى محاصراً لها فحاربه وفك حصار المدينة والحق به هزائم متعددة ، وأسر عائلته ، وكثيراً من أتباعه ، وواصل حربه في معارك كثيرة حتى أوهن قواه ، وشتت شمل جموعه .

وجاء بعده الباي مصطفى للمرة الثانية ، ولم يطل أمره ، ثم خلفه محمد بن عثمان أبو كابوس ، وكان باياً حازماً فأجهز على الدرقاويين ، وأخمد فتنتهم ، وشدد النكير على كل من يتهم بالنزعة الدرقاوية ، وتمرد في آخـــر عهده على السلطة المركزية بالعاصمة فعينت بدله باياً جديداً ، وقتلته بوهران، وهذا الباي الذي خلفه هو صهره الباي قارة بغلي ، والذي تولى الحكم سنة 1228 هـ/1813م وسعدت به البلاد ، واطمأنت على عهده قلوب العباد ، وفي أيامه انقطع ذكر الدرقاويين ، كما ظهر في عهده الجراد الكثير غير المعهود الذي عم البلاد شرقاً وغرباً .

وفي هذه الفترة هاجم الانكليز مدينة الجزائر ، ودخلوا مرساها خداعاً ، وأحرقوا سفنها ورموا القنابل عليها مدة عشر ساعات . ثم وقع الصلح بين الطرفين . وفي هذه الأثناء عزل الباي قار بغلي على ابوانه لبعض الأتراك الفارين إليه من الجزائر ، وخلفه على الحكم البـــاي حسن وهو الباي الأخير سنة 1237 هـ / 1821 م ، وتولى مسلم بن عبد القادر منصب باش كاتب لديه ، وشكر سيرته لأول ولايته الحكم إذ كان حسن السلوك ، ملازماً للصلوات « وفي آخر عهده فسدت أخلاقه ، وأبطرته نخوة السلطان ، فصار يظلم ويعتدي كما ذكرنا من قبل » .

ملاحظات حول الكتاب :

يمتاز كتاب « أنيس الغريب والمسافر » ، بأنه المصدر الأساسي الذى روى الأحداث الاخيرة للحياة السياسية التي كانت وهران مسرحاً لها قبل الاحتلال بقليل ، وقد دونها الكاتب وهو شاهد عيان لهـــا ، ومطلع على ملابستها وظروفها ، ووصفها وصفاً دقيقاً ، وأهم حادث عني الكاتب بتدوين جزئياته بدقة ، هو الحروب العنيفة التي وقعت بين البايات والدرقاويين منذ أوائل القرن الثالث عشر الهجري ، ولم تنته هذه الحروب إلا بعد أن استنزفت قوى الطرفين ، وسنخصها هنا ببسطة تحليلية تالية .

وهناك أحداث أخرى هامة فصلتها هذه الخاتمة . منها المجاعات ، والاوبئة التي فتكت بآلاف السكان ، ومنها تفصيل سير البايات المتأخرين منذ عهد محمد باي الكبير إلى آخرهم ، وهو حسن باي وهي تختلف ما بين إستقامة وانحراف وكذلك موقف هؤلاء البايات من رجال الزوايا بعد اندلاع الثورة .

وإذا قرأنا هذه الخاتمة باهتمام فأننا سنقف من خلالها على صورة واضحة عن

تدهور الوضع السياسي بعد محمد باي الكبير ، ونستنتج من ذلك أن عصر محمد باي الكبير هو العصر الذهبي لبايات وهران ، وبعد عصره يأخذ العهد التركي في التراجع والتدهور ، حتى يبلغ أقصى انحطاطه في عصر الباي الأخير . وقد لاحظ المازري أن الأتراك لما تمهّد ملكهم بالجزائر كثر ظلمهم ، وفسادهم ، وأخذ العلماء يستنكرون عليهم سلوكهم هذا ويهجونهم ومنهم سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني الذي قال فيهم :

بَنَى السَّدَّ ذُو القَرْنَيْنِ لِلنَّاسِ رَحْمَةً
فَيَا لَيْتَهُ مِنْ شَوْكَةِ التُّرْكِ هَنَّانا !

ومنهم مؤلف الكتاب مسلم بن عبد القادر الذي كتب رجزاً فيهم بعد مفارقته للباي حسن على ما يبدو ؛ قال فيه :

فانشغلوا بالظلم ليس من عدل
فأخذوا أخذ وبيلا بالمهل

لما نسوا ما ذكروا به ختم
على قلوبهم الله وانتقم

ولكنه من جهة أخري شهد لهم بالشجاعة والصرامة في الحروب .

صَنَادِيدُ لَوْلاَ الْفَسَادُ فِي الْوَرَى لَقُلْنَا قَلْ مِثْلُهُمْ فَوْقَ الثري

ونلاحظ في تاريخ مسلم بن عبد القادر أن الحديث عن الباي الأخير قليل جداً ، وكان المنتظر من المؤلف وهو النجم اللامع في بلاطه أن يحدثنا كثيرا عن حياته السياسية والاجتماعية التي دامت من سنة 1237 هـ إلى سنة 1248 هـ أي نحو إحدى عشرة سنة ولا شك أن سكوت المؤلف عن هذا يعود إلى عدم

رضاه عن حياته في البلاط بعد أن تغير سلوك الباي ، وساءت معاملاته للناس عامة ، وللعلماء ورجال الدين خاصة .

اسلوبه :

أما أسلوب مسلم بن عبد القادر فهو أسلوب بسيط ، تكثر فيه المفردات العامية والأخطاء النحوية ، والصرفية المتعددة .

ولعل ظاهرة الضعف الأدبي كانت عامة في هذه الفترة التي كانت تمتاز بالتدهور الأدبي والعلمي في القطر الجزائري عامة .

وإذا قرأنا ما كتبه بعض أعلام هذا العصر كأبي راس المعسكري ومحمود ابن الطاهر بن حواء ، ومسلم بن عبد القادر وغيرهم من أدباء وهران ، وجدنا أن أسلوبهم الأدبي ضعيف ، وأن شعرهم فاسد متهافت ، على أن أبا راس كان يمتاز عنهم بأسلوبه النثري المقبول ، وبسعة حفظه واطلاعه .

* * *

أسباب الثورة الدرقاوية

نظرة حول الثورتين الدرقاوية والتيجانية :

تنسب الثورة الدرقاوية بالايالة الوهرانية إلى أحد أتباع العربي الدرقاوي وهو عبد القادر بن الشريف الدرقاوي الفليتي الذي درس بزاوية القيطنة لمحي الدين والد الأمير عبد القادر .

ثم التحق عبد القادر هذا بالمغرب ، واتصل فيه بمولاي العربي الدرقاوي المولود بعد عام 1150 هـ / 1737 م ، والمتوفى سنة 1239 هـ / 1823 م في زاوية ببوبريح من بني زروال(1) وكان هذا قد أخـــذ الطريقة عن شيخه علي بن عبد الرحمن الجمل ، ثم نبغ في التصوف وكثر أتباعه . وكان منهم عبد القادر بن الشريف الفليتي الذي عاد إلى المغرب الأوسط وقد حصل جملة صالحة في كل فن خصوصاً التصوف ، وأظهر الصلاح والزهد ، ومال الناس إليه وأخذوا عنه ،

---

(1) واجع دائرة المعـــارف الاسلامية مج 7 ص 189 - 206 - مقال الأستاذ كور حول الدرقاوية ص 198 .

وكثر جمعه فكان يخرج بهم إلى الصحراء كما يقول مسلم بن عبد القادر ، ويقوم بالشعائر الدينية أمام الأعراب ، فكانوا يحترمونه ، ويقدمون إليه العطايا والهبات ، ويشكون إليه من أضرار المخزن ، فكان يعدهم بالفرج القريب ، وكان يذهب إلى شيخه زائراً ، ويقص عليه ما يجده الاتباع من مظالم الترك ، فيقول له أنصرهم والله ينصرك ، وقد تشجع عبد القادر بهذا الاذن . واستعد للثورة ، وكان مقرّ أعداده للثورة هو موطن الأحرار ، كما يقول مسلم بن عبد القادر والزياني في الترجمان المعرب(1) ، ويذكر صاحب الاستقصاء : إن بوادر هذه الثورة تعود إلى عداوة البايات في وهران لرجال التصوف والطرق الدينية ، وقد قتل بعض هذا هؤلاء البايات بعض رجال الطائفة الدرقاوية ، وأمر بأن يقبض على زعيمهم عبد القادر بن الشريف شيخ الطائفة الدرقاوية ، ففر عبد القادر هذا إلى بلاد الاحرار بالصحراء ، ثم استعد للثورة .

ولما جاءت سنة 1220 هـ / 1805 م زحف إلى جهة غريس ، وأعلن العصيان على الترك على مقربة من تاقدمت ، كما يقول مسلم بن عبد القادر ، وزحف إليه الأتراك ، وكان اللقاء بموضع بين وادي مينة ، ووادي العبد ، ويدعى بفرطاسة واشتدّ القتال بين الفريقين ، ثم انهزم الأتراك وأعوانهم هزيمة منكرة ، وفرت بقاياهم إلى معسكر في 8 ربيع الأول من هذا العام ، ثم تسابقوا إلى وهران ، وطاردهم عبد القادر بن الشريف إليها ، واستفحلت ثورة الثائر الدرقاوي وعظم أمره(2) ، وجاءت نجدة عسكرية من الجزائر لمساعدة الباي مصطفى ،

---

(1) الزياني : الترجمان المعرب عن دول المشرق والمغرب مخطوط بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم ك 223 ص533 والناصري أحمد : في الاستقصاء في أخبار المغرب الاقصى ج8 ص109 .

(2) دائرة المعارف الاسلامية مج 9 ص 201 .

ولكنها لم تفده شيئاً ، وفي هذه الأثناء كتب الباي إلى السلطان المولى سليمان يعرفه بما دهاه من أمر الدرقاويين ، ويطلب منه أن يبعث إليه شيخهم أبا عبد الله العربي الدرقاوي ليكفهم عنه ، ويراجعوا طاعة المخزن ، فبعث السلطان الشيخ المذكور ، ومعه أمينة الحاج الطاهر بادو المكناسي ، فوصل الشيخ إلى ابن الشريف ، وهو في جموعه بظاهر وهران(1) فشكا إليه عبد القادر بن الشريف ما نزل بالفقراء المنتسبين إليه ، وبسائر الرعية من عسف الترك وجورهم ، وانتهائهم في ذلك إلى القتل والطرد عن الوطن ، فتوقف الشيخ ، وربما صدر منه بعض تقبيح لفعل الترك ، وما هم عليه ، كما يقول صاحب الاستقصاء فازدادت العرب بذلك تظاهراً على الترك ، وتكالبا عليهم ، فاتهم الباي السلطان بأنه هو الذي يغريه بمواصلة الحرب ، في حين أنه كان يرجو منه رفع الخرق .

وأما الزياني فانه يذكر أن الشيخ العربي الدرقاوي قد أعجب بجموع عبد القادر الشريف ، فاطلق لسانه في الترك ، وقال : إن الترك أدبرت أيامهم ، فلم تقم لهم قائمة ، وإن الله ملككم أرضهم وأموالهم ، ونادى مناديه على العرب أن ينزلوا بساحتهم ، ويتقدموا لحريهم ، فبلغ كلامه الباي فاغتاظ ، واتهم السلطان بالممالأة ، ويبدو أن هذا الباي هو المقلش الذي خلف الباي مصطفى أثناء حصار وهران .

ولما استيقن هذا الباي من عدم جدوى الوساطة ، استعد لمدافعة عبد القادر بن الشريف وصوب مدافعه من جهة البحر إلى جموعه ، وأخذ يطلق القنابل عليهم فتشتت جموعهم ، وتفرق شملهم .

---

(1) راجع الاستقصاء ج 8 ص 110 – والترجمان المعرب للزياني ص 535 .

ويذكر الزياني أن الأعراب قد استبان لهم كذب عبد القادر بن الشريف حينما مات منهم عدد كبير ، وأخلفت وعوده التي خدعهم بها ، وفر عبدالقادر وفلول جيشه إلى تلمسان ، واحتلها وحاصر الأتراك بالمشور ، وهناك دعا الثائر لطاعة السلطان سليمان خداعاً منه ، وتوسلاً بذلك للسلطة ، وأخذ بيعة أهلها له ماعدا المتحصنين بالمشور ، وبعث هديته ووفده إلى السلطان مع شيخه العربي الدرقاوي(1) وقدم الشيخ على السلطان بوفد أهل تلمسان والعرب، وبهدية ابن الشريف وبيعته . ورأى أن حسن السياسة يتطلب منه أن يتوسط بين الترك والحضر ، وتقدم إلى رئيس الوفد عباد بن أبي شفرة الودي في القاء القبض على عبد القادر بن الشريف إذا لم يوافق على السلم . ووصل رئيس الوفد القائد عباد إلى تلمسان ، وأصلح بين الفريقين وقدم الباي من وهران ، وأصلح الأمر بين الحضر والكراغلة ، ثم رجع إلى وهران ، وجلا كثير من أهـــل تلمسان إلى المغرب عقب مجاعة شديدة وقعت بالمنطقة ، ثم أرجعهم السلطان إلى تلمسان ارضاء للباي ، وأوصى بالاحسان إليهم . ويذكر الزياني أن ابن الشريف فرّ من تلمسان لما سمع بقدوم عباد قائد السلطان .

* * *

---

(1) الاستقصاء ج 8 ص 110 .

(2) الزياني : الترجمان المعرب ص 535 .

مواصلة عبد القادر بن الشريف لحرب الأتراك

وواصل عبد القادر حربه للاتراك بعنف وقساوة ، واتصل بمختلف القبائل لتحريضهم على الثورة ونجح في اغواء البرجية ومجاهر على الانضمام إليه لمحاربة الترك . وتعددت المعارك بينه وبينهم في مواقع مختلفة ، ومنها موقعة وادي المالح أحد فروع وادي مينة ، وقد انهزم فيها الدرقاويون هزيمة منكرة ، ومعركة قرية سيدي محمد بن عودة ، وفيها هزم الدرقاويون هزيمة منكرة أيضاً ، وجمعت رؤوس القتلى منهم فكانت اكواماً ، وكان الجندي يأتي بثلاثة رؤوس أو أربعة ويضعها بين يدي الباي ، كما يضع الرجل البصل كما يقول مسلم بن عبد القادر .

ثم طارد الباي الدرقاويين إلى بلاد بلاد بني عامر ، ونزل تاسالة والتقى بجموع الدرقاويين من الاعراب وهزمهم هزيمة منكرة ، وسار الى تلمسان وتفقدها وأصلح أحوالها ، ثم عاد إلى وهران وبعد شهر بلغ الباي أن الدرقاويين جمعوا له بوادي الرمان من بلاد مجاهر فقصد إليهم وحاربهم وهزمهم .

وتعددت المعارك بين الدرقاويين والأتراك في مواقع أخرى مختلفة بتافنة

وقد شارك فيها ابن الأحرش بعد أن أخفق في ثورته بقسنطينة ، وانضم إلى الدرقاويين لمحاربة الأتراك بالمقاطعة الوهرانية . ثم عزل الباي المقلش بعد هذه الانتصارات الكبيرة ، وعاد الباي مصطفى فثار عليه الدرقاويون بفليتة ، وحاربهم وهزمهم ، ثم ثاروا عليه بمرغوسة وحاربهم وهزمهم أيضاً . ثم عاد إلى الجزائر وخلفه الباي محمد بن عثمان أبو كابوس سنة 1223 هـ / 1808 م وأقام في الحكم نحو 5 أعوام قضى فيها على الدرقاويين قضاءً مبرماً ، وأجلى عبد القادر بن الشريف إلى الجنوب بنواحي عين ماضي ثم رجع الثائر إلى بني يزناسن سراً ، واستنهض أهل الحدود الوهرانية المغربية (بمعونة زوج ابنة أبي ترفاس وخاصة قبيلة ترارة)(1) فسار الباي إليهم وهزمهم . ويضيف إلى ذلك مسلم بن عبد القادر أنه هدم قرية أبي ترفاس ، واحتطب جنانها ، وفي طريقه إلى تلمسان أصابه ثلج شديد بوادي تافنة ماتت فيه خيول كثيرة لجنوده فاضطرب جيشه ، وعاد إلى تلمسان في أسوأ حالة ، ثم سار منها إلى وهران .

لم تذكر الدائرة هنا أن هذا كان سبباً في حدوث ثورات عليه كما كانت من عوامل القضاء عليه ، والحقيقة كما يقول مسلم بن عبد القادر : إن أبا كابوس رجع إلى وهران ، وانتظمت أموره ، ثم طلب منه الباشا بالجزائر أن يسير بجيشه الباسل إلى قسنطينة ليحارب الجيش التونسي ، وخرج من وهران بجيشه إلى أن وصل إلى وادي بلل ، وهناك أعلن الثورة على حكومة الجزائر ، ولم نقف على الأسباب الحقيقية التى دعت أبا كابوس لرفع راية العصيان على الحكومة المركزية بالجزائر ، ولم تتعرض الدائرة ولا غيرها من المراجع التي رأيناها إلى ذكر هذه الحادثة وتعليلها . وتذكر الدائرة أن الثورة الدرقاوية قد أفسحت

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية مج 9 ص 207

الجال للسلطان مولاي عبد الرحمن(1) لمهاجمة فيجيج عام 1805 وقورارة وتوات عام 1808 م على عهد الباي المقلش وساعدته على أن ينتزع جميع أراضي الجنوب الشرقي من الاقليم الوهراني التابعة لحكم الباي .

نهاية الثائر عبد القادر بن الشريف .

ودام عبد القادر بن الشريف في مشاغباته وثورته على الأتراك إلى أن قضى عليه نهائياً في أواخر عهد الباي بوكابوس أي في عام 1809 م .

وأما الشيخ العربي الدرقاوي فإنه قد فسدت العلائق بينه وبين السلطان بالمغرب فسجنه ، وأقام في سجنه حتى أطلق سراحه بعد موت السلطان عام 1821 م . وهكذا كانت الثورة الدرقاوية التي دامت نحو 10 سنوات وبالاً على المقاطعة الغربية ، وسبباً في تخريب شامل للحياة الاقتصادية والاجتماعية فيها كما كانت سببا في تقتيل مئات من أبناء الوطن ، وفي استنفاد الطاقات الحربية التي كانت خير قوة تعدّ لمدافعة الاسبان بوهران ، ولردهم عن العاصمة الجزائرية حينما حاصروها حصاراً عنيفاً في أواخر القرن الثامن عشر الهجري ، وخير قوة كان يمكن أن ترصد لرد جيوش الاحتلال الفرنسي فيما بعد .

إن الأتراك لم يكونوا أهلاً للحكم في أواخر عهدهم بعد انقضاء عهد محمد عثمان باشا داي الجزائر الكبير ، والباي محمد الكبير بوهران ، وصالح باي قسنطينة ، ثم جاء بعدهم الدايات والبايات المتأخرون في أول القرن التاسع عشر ، وحكموا البلاد مدة 30 سنة لم تكن فيها سياستهم رشيدة ، ولا كان حكمهم فيها عادلاً على العموم فكان من الطبيعي أن يكثر الناقمون والثائرون عليهم .

---

(1) الدائرة مج 9 ص 201 .

وإذا أضفنا إلى ذلك تدخل السياسة الأجنبية في تغذية بعض الثورات كتشجيع الانقليز لابن الأحرش في قسنطينة وغيره تبيّن لنا أن عوامل الثورة الشعبية قد تمت أسبابها ، وكانت تنتظر أقلّ شرارة لاشتعالها واندلاعها ، ولما وجدت هذه الأسباب اندلعت الثورة ، وعادت بالوبال والدمار على الشعب والحكومة التركية معاً ، ومهدت السبيل للاحتلال الفرنسي بعد حين .

الثورة التيجانية :

وثار أتباع الطريقة التيجانية سنة 1242 هـ / 1826 م بقيادة أحمد بن سالم التجيني في نحو 600 رجل ، ووصل هذا الثائر إلى معسكر ، ودخل إلى حومة باب علي ، ثم خرج منها ، والتقى بجيوش الباي بعواجة واشتبك معها في حرب عنيفة كانت خاتمتها سحق هؤلاء الثوار التجانيين ، ثم سار إلى معسكر مسروراً بانتصاره(1) .

(1) طلوع سعد السعود للمازري 302 .

نتــــائج

كانت هذه الثورات الوطنية المتعددة العوامل سبباً في انهاك القوى الحربية للأتراك من جهة ، وفي أضعاف الجيش الوطني من جهة ثانية فلم تبق له تلك الصولة التى كان يتمتع بها فى أواخر القرن الثامن عشر على عهد محمد عثمان باشا بالعاصمة ، وصالح باي بقسنطينة ، ومحمد باي الكبير بوهران .

ولا غرو أن تكون نتائج هذه الحروب المتواصلة في غير مصلحة الوطن ، وان تكون بداية انتكاس محزن للقوى الجزائرية التي كانت رهيبة ، ثم أخذت في التراجع شيئاً فشيئاً في هذه الأثناء ، وبقيت في تدهورها المستمر ، حتى أقبلت قوات الاحتلال الفرنسية ، فلم تستطع أن تقف أمامها على الرغم من مقاومتها المستميتة في مدافعتها .

أخــــيرا

إن هذا الكتاب « أنيس الغريب والمسافر » سيكون مرجعا أساسيا للباحثين عن الحياة السياسية التركية بعد محمد عثمان باشا بوهران خاصة ، وبالجزائر عامة .

وسيزود المكتبة الجزائرية بتراث تاريخي هام ، لا تستغني عنه في هـــذه النهضة الوطنية المباركة التي عزمت فيهـــا الأمة وحكومتها الديمقراطية والشعبية على احياء تراثنا الوطني الجليل وعلى بعث كل أثر فكري يعيد لشخصيتنا الأصيلة مقوماتها الأساسية ، وعناصر كيانها البارزة التي يتوقف عليها بناء نهضتها الحديثة وربط حاضرها اللامع ، بماضيها الخصب الأبي .

خاتمة

أنيس الغريب والمسافر

في طرائف الحكايات والنوادر

تحقيق الاستاذ رابح بونار